اسمحوا لنا بالبكاء العلني !

بطاقة شخصية :

الملازم ليئور يوناتان (٢١ سنة) من كيبوتس «سريد» التابع لحركة هشومير هتسعير (الحرس الفتي) المبامي . كان قائد وحدة دبابات في الجيش الاسرائيلي . « كان » .. لانه سقط في القطاع الشمالي من قناة السويس ، في الساعات الاولى من حرب رمضان ـ اكتوبر .

والده الشاعر العبري المعروف ناتان يوناتان ، وامه تسفيرة يوناتان ، مدرسة الموسيقى في احدى مدارس حيفا الثانوية .

نشأ ليئور في اسرة تمقت العنصرية والحروب ،ورغم البيئة العامة التي تعيش وتنمو على الكراهية ، لا سيما كراهية العرب ، فان ليئور استطاع الاحتفاظ بروح اسرته وتربيته الاولية ، ومن ثم استطاع رؤية الحقيقة ـ حقيقة الظلم الذي لحق بالشعب العربي الفلسطيني .. لكن ليئور كان خجولا ، ولذا فقد تجنب الخوض في حوار غير مجد مع زملائه ورفاقه .. اما الحرب فلا تستطيع ان تميز ،بين افكار الجنود ، وهكذا كان ليئور واحدا من آلاف ضحايا سياسة الاحتلال والعدوان والتنكر لحقوق الاخرين ،هذه السياسة القاتلة التي لم يتخل عنها حكام اسرائيل في يوم من الايام .

آباء وابناء :

اما والد ليئور ، الشاعر ناتان يوناتان ، فستقول قصائده الجديدة كل الكلمات التي يمكن ان تغلي في سريرة شاعر ثاكل ..

واما امه ، السيدة تسفيرة يوناتان ، فلم تحتمل اثقال الصمت ، وباحت بكثير مما يدوّم في اعماقها المنكوبة، ونشرت بعض الصحف الاسرائيلية نفثات ام ليئور الثاكل، وبهم « نادي الجديد » ان يقدم بعضا من اقوال السيدة تسفيرة ، لانها اقوال غير رائجة وغير مألوفة كثيرا .. فقد جرت العادة على ان تصرح الامهات الاسرائيليات بفخرهن لسقوط ابنائهن في ساحة القتال .. ونحن لا نشك ولا نريد ان نشك في صدق الامهات المنكوبات ، ولكن يهمنا كثيرا ان تكون صرخة الثكل قد انطلقت الى ابعاد جديدة تدين العوامل التي ادت الى سقوط الابناء .. ونزعم ان في تصريحات السيدة تسفيرة يوناتان انطلاقا انسانيا الى ابعاد جديدة يجوز اعتبارها ادانة للنظام القائم .

في حديث لمجلة « هعولام هزيه » ولصحيفة «هآرتس» قالت تسفيرة يوناتان كثيرا من كثير ، ونحن نقدم هنا بعضا من اقوالها ، مع المحافظة على روح تصريحاتها ، تاركين للقراء ان يحكموا بأنفسهم ، على سياسة حكام اسرائيل التي ما زالت سببا مرعبا لسفك الدماء :

« احضروا لي رسالة من ام اخرى . ام ثاكل ، موجهة الى هذا الجيل كله . لقد ثكلت ولدين ـ احدهما في حرب الايام الستة والثاني في حرب يوم الغفران . كانت لدي كل الرغبة في التضامن مع هذه الام . بعد كل سطر قراته تعمق لدي الاحساس بأن هوة تتعمق بين والدتين ، تحملان الما مشتركا . في رسالتها تصف حفيدها . ومن روح كلماتها ، تولد لدى الاحساس وكأنه امر شديد الاهمية ان نهيىء الحرب الحفيد ، وان نهيئه ونهيىء والديه لهذا الحدث . تمردت وقررت ان اقول كلمتي ، ربما ليس لجيل كامل بل لاولئك الذين يريدون الاصغاء الي .. الى ام . »

وتروي تسفيرة يوناتان قصتها مع مصرع ابنها ليئور والمفارقات الحزينة التي رافقت ذلك فتقول :

« في السادس من اكتوبر ، ومع اندلاع الحرب ، احسست بفقدان ولدي ، كنت اعلم ان ليئور موجود في الخط الامامي ، في مكان لا مجال فيه للمناورة . كانت تلك ضربة عنيفة . اليوم نفسه كان يوم ميلاد ابيه . وكانت تلك هدية يوم ميلاده » .

كانت السلطات قد حددت موعدا يستطيع فيه الاباء الثاكلون ان يزوروا قبور ابنائهم في المقبرة العسكرية ، لكن تسفيرة وناتان يوناتان تمكنا من زيارة قبر ابنهما ليئور قبل الموعد المحدد بأسبوع . وتقول تسفيرة يوناتان :

« كانت هذه هدية ليوم ميلادي . في ذلك اليوم بلغت السابعة والاربعين ».

وتتحدث فيما بعد عن العذاب الذي قاسته يوم « الاحتفال الرسمي ، يوم حشر الآلاف من ذوي الجنود الضحايا في بقعة صغيرة من الارض هي بقعة المقبرة ،بينما « تمتع » الضباط والخطباء والمسؤولون بمساحة كبيرة حفاظا على هيبة « الاحتفال » .. ومما زاد في عذابها ان الجنديات كن يوزعن الابتسامات وزجاجات العصير على الثكالى .

لا أكره !

هل تكره تسفيرة يوناتان ذلك الجندي العربي الذي اطلق النار على ابنها ؟ انها سيدة مثقفة روحا وفكرا ، ولذا فهي تدرك جيدا ان العرب لا يطلقون النار من اجل رغبة مجردة في القتل ، وهي تدرك ايضا ان ذلك الجندي العربي لم يطلق النار على ابنها « شخصيا » ، بل على الاحتلال الاسرائيلي ، وعلى الاستعباد والعدوان ، لذلك فهي تقول :

« دائما،حز في نفسي منظر المنازل العربيةالمهجورة، وبقدر ما هدموا تلك المنازل ، بقدر ما نمت اشجار الصبار العربية ، واعلنت الحقيقة » .. « من حيث شعوري ، فأنا حتى الان ـ ومع ان ذلك اقسى من الجحيم ـ اشعر بالاعتزاز وانا اعترف مرة اخرى بما قلته منذ اليوم الاول لبلوغ النبأ عن مصرع ابني : لا اكره المصري الذي قتل ابني ، وانا احس الالم الذي تعانيه الامهات المصريات ، مثل امي » .

وماذا تقول تسفيرة يوناتان عن كل « التعازي » والخطب و « دموع التماسيح » التي تفمر سوق الموت والدمار محاولة اخفاء الوجوه الحقيقية التي كانت سببا للموت والدمار ؟!

« لا اريد ان اسمع تعزيات ، ولا اية كلمات عن المجد ، من غولده وديان . كل شيء اصبح مقيتا . وانا التي احببت الموسيقى ، اصبحت اكرهها . بدءا من الاغنية الخفيفة حتى الكونسرتو . بالنسبة لي ، اعلنت الموسيقى افلاسها » ..

« الآباء عاجزون عن الكلام . والسلطة توجه هذا الصمت ، وتساعد على اسكات الجميع » ... « الان اصبحنا مثل لصوص نعمل في السر . احدنا يعلم بمأساة الآخر ، سرا .. من الفم الى الاذن . نتلقى مئات الرسائل من اصدقاء ، يتضح لنا انهم علموا بالامر ، عن طريق الصدفة . هذه « السرية » التي لا تسمح لنا حتى بالحداد الجماعي ، يجب ان يوضع حد لها !

ينبغي ان يزول الحاجز . يجب ان يسمحوا لنا بالبكاء العلني على ابنائنا » . (*)

(*) عن مجلة « الجديد » التي تصدر في الارض المحتلة .